النجاة من مخالب الموت

خلصنا في مقتطف سبتمبر وصف معركة جتلند البحرية كما كانت تبين لمن حلّق فوقها ورأى السفن التي اشتركت فيها تجيء وتروح وتكر وتفرّ . وقد وقفنا الآن على ما كتبهُ بعض الرجال الذين اشتركوا فيها ونجوا من مخالب الموت فرأينا ان نلخصهُ عبرةً للذين لا يعلمون قيمة الحرية التي يدافع عنها الحلفاء او قيمة التفوّق البحري الذين يضنون الاحتفاظ به

قال رجل اسمهُ شو من بحارة الطراد الانكليزي وريورا الذي تقريغهُ ١٣٥٥ طنًّا وسرعتهُ ٢٢٫٥ ميلاً بحريًّا في الساعة وفيهِ ستة مدافع مما قطرهُ ٢٫٩ بوصة) اخذنا خطة الهجوم في اول القتال وذقنا الامرّين ولكننا طمانا كل ما اصابنا من قنابل العدو . ثم بلغنا ان طراداتنا الكبرى (طرادات القتال) وصلت واشتبكت في القتال ايضاً لكننا لم نحقق صدق الخبر وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أُمرنا ان نكون على تمام الاستعداد ثم قيل لنا ان الخبر صحيح ولا بدَّ من الاسراع الى المعمعة فابرقت اسرّتنا وتهللت وجوهنا . وكنا قد تذاكرنا كثيراً فيما نستطيع فعلهُ وما نعجز عنهُ والآن حانت الفرصة لاظهار مقدرتنا وهذا سبب سرورنا ولكننا لم نطش بل لزمنا جانب الرزانة وجرى كل واحد منا في عمله كأنهُ من الاعمال العادية التي يعملها كل يوم . ودمنا على مثل ذلك كل مدة القتال حتى لما ضاقت خناقهُ علينا واشرفنا على الهلاك لم ارَ احداً منا تولاهُ الجزع . وهذه فائدة التمرين والتدريب فانهما يسهّلان على صاحبهما خوض المعارك غير هيّاب ولا وجل

ثم قيل لنا هبوا الى سلاحكم فاديرت الابراج وحشيت المدافع وكانت سفن العدو لا تزال بعيدة عنا حينما وقع نظرنا عليها . ولما ابتدأ طرادنا يطلق مدافعهُ شغلت حتى لم اعد ارى الا ما انا فيهِ وما يحدث على مقربة مني لان ميدان القتال كان واسعاً جدًّا يعسر الالمام بهِ . فهجمنا على العدو والطرّاد دنس في طليعتنا وأُمرنا حينئذٍ ان نطلق المدافع على طراد خفيف من طرادات الالمان كان على نحو ٦٠٠٠ يرد منا ولم يكن الاَّ قليل حتى اضرمنا النار فيهِ ولكن البرى لنا اربعة طرادات كبيرة من طرادات القتال الالمانية واصلتنا ناراً حامية وكانت دروعها اسمك من دروعنا ومدافعها اكبر من مدافعنا فلم تمضِ ثمان دقائق حتى اصابت الطراد دنس في مؤخرهِ ثم اصابتهُ في مقدمهِ وهو لا ينفك عن الدنو منها واطلاق مدافعهِ عليها الى ان اصابت قنبلة مخازنهُ ونسفتهُ فوارتهُ اليمّ بعد ان حارب رجالهُ حرب الابطال

وحينئذٍ سدّدت هذه الطرادات الاربعة كل مدافعها الى طرادنا فعطّلت اولاً آلاتنا البخارية التي الى اليمين والظليات المائية فصرنا مضطرين ان نحرك كل مدافعنا بايدينا . ثم سدّدنا مدافع المؤخر الى الطراد الخفيف الذي اضرمنا فيه النار اولاً وكانت المسافة بيننا وبينهُ قد صارت اقل من ستة آلاف يرد فاغرقناهُ حالاً ولم نُغرق نحن غيرهُ لان الطرادات الكبيرة كانت اكبر والوى من ان نستطيع اغراقها بمدافعنا . ولما درنا لضرب الطراد الصغير تعرّضنا لنار حامية من خمس بوارج المانية من طرز الكونيج نسدّدت الينا مدافعها التي قطر فوهة كلٍّ منها ١١ بوصة و ١٤ بوصة . وقد التقطتْ قطعة من قنبلة انفجرت على ظهر طرادنا وقطر دائرها ١٤ بوصة وحينئذٍ دخلت قنبلة كبيرة غرفة الديناموفلم تبق فيها ولم تذر فانطفأت كل الانوار الكهربائية وتعطلت كل اسلاك التلفون في مخازن الذخيرة والآلات فصرنا مضطرين ان نتلمس تلمساً في الظلام وصار يصعب علينا نقل الاوامر من جهة الى اخرى . ودخلت قنبلة غرفة المهندسين وحطمت جانباً من العضائد القائم عليها برج مدفعي ولكنها لم تنفجر لحسن البخت ولو انفجرت لما بقي من يكتب هذه السطور . ثم جاءت قنبلة ثانية ونزلت على ثماني اقدام من مقدم برج مدفعي وثالثة على سبع اقدام وراءهُ ثم وقعت قنبلة في البحر على نحو ٣٠ قدماً من فوهة مدفعي وانفجرت هناك وكان لانفجارها هزّة شديدة رمتني الى الوراء وكادت تصرعني ولكنني لم اغب عن الصواب الاَّ بضع ثوانٍ ثم انتبهت وسررت لانني لم ازل في قيد الحياة . وتخرّق طرادنا في اماكن كثيرة وقتل من رجالنا ٦٦ وجرح ٢٥ واكثرهم من الذين كانوا موكلين باطفاء النيران لانهم كانوا مضطرين ان يجتمعوا جماعات . وقد تمزقت اعضاء البعض منهم تمزقاً وقتل بعضهم بالغازات الخانقة لان الالمان اطلقوا علينا كثيراً من القنابل الغازية لكن هذه الغازات لم تفعل الاَّ في الاماكن المحصورة الهواء بين طبقات السفينة . ولو لم يبادر البحارة الى رفع الحواجز المدرعة التي تفصل غرف الطعام عن ظهر السفينة حتى يدخلها الهواء النقي لكثر الذين خنقتهم الغازات . ولم يكن رفع هذه الحواجز بالامر السهل لكثرة ما تلوّث بما اصابها من القنابل لكن تعبنا في رفعها لم يذهب سدًى لانهُ نجّى كثيرين من اخواننا من الموت اختناقاً . اما الذين قُتلوا على ظهر الطراد فقليلون جدًّا مع كثرة ما اصيب بهِ من القنابل . ووقعت قنبلة صغيرة في بيت المؤونة فاطارت اللحم وسائر الاطعمة منهُ وبعثرتها في كل جهة . ووقعت قنبلة اخرى في الظهر المقدم فاضرمت النار فيهِ وقعنا جدًّا في اخمادها قبلما تغلبنا عليها

واتضح لنا حينئذٍ انهُ لا بدَّ من غرق طرادنا بعد بضع دقائق وبينما نحن نفكّر في ذلك

واذا بالبارجة ورسيبيط قد دنت منا فاشتغل بها العدو عنا وهي علة نجاتنا فان الالمان وجدوا فيها عدوًّا لدودًا لاسيما وان مدافعها من عيار ١٥ بوصة فكالت لهم بالكيل الذي كالوا وازيد ولكن لم يكن الاَّ قليل حتى وقع خلل في الآلة التي توجهها فصارت تدور في دائرة كلما حاولت التقدم اما نحن فهرعنا في ظلها معتمدين على الآلة البخارية في مؤخر طرادنا لانهُ لم يبقَ لنا سواها ولم نبعد كثيراً حتى بطل عمل هذه الآلة ايضاً فاضطررنا ان نقف مكاننا . ومن ثم يظهر انهُ لولا مبادرة الورسيبيط الينا للقينا حتفنا في تلك اللحظة . وبعد قليل وصلت بوارجنا الكبرى فاركنت بوارج العدو الى الفرار

وكانت قواربنا قد تعطلت كلها فجعلنا نصنع الارماث (الاطواف) لنتجو عليها حينما يغرق طرادنا ودنت منا حينئذٍ سفينة الطيارات المائية فجعلنا نعد الاسلاك اليها لكي نقطر طرادنا ما دام عائمًا على وجه الماء وكان معنا ١٥ نجاراً فقتل منهم ١١ وبقي اربعة فقاموا بعمل الارماث بهمة لا تجارى تحت اشد المخاطر وهم باذلون جهدهم في منع الطراد من الغرق . وقطرتنا سفينة الطيارات الساعة الثامنة مساءً وسارت بنا تحت جنح الظلام وقد زادت المياه التي دخلت طرادنا رغمًا عنَّا بذلنا من الهمة في اخراجها منهُ وكنا نحسب في كل لحظة انهُ سيغرق بنا لكننا لم نغادرهُ ولا ابطلنا اخراج الماء منهُ ولا بدا اقل شيء من التذمر على وجه احد . ومضى الليل كلهُ ونحن على هذه الصورة وطلع الفجر وكان الماء قد زاد في الطراد واساله على احد جانبيهِ وجعلت الامواج تمرُّ على ظهرهِ ولم يبقَ لنا الاَّ ان نغادرهُ فطلبنا من سفينة الطيارات ان تعود الى جنبهِ ونقلنا اليها جرحانا ثم انتقلنا نحن اليها ايضاً وودعنا طرادنا الوداع الاخير وهتفنا لهُ ثلاثاً وانشدنا انشودة فيها اسمهُ ثم ابعدنا عنهُ فلم نرهُ حينما غاص في ذلك الخضم

وكتب نابط صغير كان في المدمرة المسماة فورتشن قال ما خلاصتهُ

كانت مدمراتنا خمساً تسير امام البوارج الكبرى (الاسطول الانكليزي الاكبر) كسار لها وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين اتانا من الاميرال بيتي اشارة يقول فيها « اننا مطاردون طرادات العدو ومدمراتهِ شمالاً » ثم جاءتنا اشارة اخرى يقال فيها انهُ يجب ان نسرع باقصى جهدنا . فصدعنا بالامر وبعد قليل جاءتنا منهُ انهُ اشتبك مع اسطول العدو . ولما بلغ هذا الخبر الاميرال جيكو بادر باسطولهِ لنقدمهُ مدمراتنا

وكنا كلنا جارين باشد سرعتنا ونكاد نطير فرحًا لاننا كنا متوقعين ان نسخ لنا

الفرصة للايقاع بالعدو . ونحو الساعة السادسة مساء وصلنا الى ميدان القتال وظهر لنا ان اسطول الاميرال بيتي يحاول ان يخرج من بين بوارج العدو و يجرّها الى حيث كان اسطول البوارج الكبرى وكنا قد بلغنا منطقة النار ونحن جارون نحو العدو باشد سرعتنا فجعلت القنابل تنهال علينا وتتساقط حولنا وقد سقط بعضها على بضع اقدام منا و بعد قليل اصيبت مدمرة من مدمراتنا بقنبلة عطّلت آلاتها البخارية فقضت عليها وكانت القنابل التي تسقط في البحر تدفع منهُ اعمدة من الماء تعلو في الجو ثم تقع علينا ولكننا لم نبالِ بها . وكانت قنابل الاميرال جليكو تمر فوق رؤوسنا قاصدة بوارج العدو فتصيبها وتنفجر ولم يتبيّن فعلها بها لبعد المسافة لكنني اعلم فعل القنبلة التي قطرها ١٥ بوصة اذا اصابت غرضاً وانفجرت ولذلك لا يصعب عليّ ان اتصور ما القيهُ الالمان منها وان كانت السفن التي أُصيبت قد نجت من الغرق كلها وذلك بعيد جدًّا فلا بدَّ من انها تحتاج الى ترميم كثير قبلما تصلح للحرب ثانية

وبينما نحن كذلك رأينا اسطولاً من طراداتنا المدرعة من طرز الانفنسبل اقبل من جهة اخرى ودنا من بوارج العدو واشتبك معها فسدَّد العدو مدافعهُ كلها الى الطراد انفنسبل واغرقهُ فرأيت لهيباً كبيراً انبثق منهُ فجأةً ومعهُ دخان كثيف ولما انقشع الدخان كان الطراد قد غاص في اليمّ ولم يبقَ منهُ الاَّ مقدمهُ بارزاً وبعد دقائق قليلة غاص هذا ايضاً ولم يبقَ شيءٌ منهُ فوق الماء

سمعت مرةً ان الجحيم تأجج على اليمّ فلم ادرك معنى هذا القول حتى رأيتهُ بعيني . كانت القنابل التي قطرها ١١ بوصة او ١٢ بوصة تصفر حولنا بالالوف وصوتها يصمُّ الآذان ثم تنهال على البحر كانها المطر وقد تصيب سطح الماء ثم تثب عنهُ مراراً لشدة زخمها حتى لقد يظنها المرء ابالسة ترقص على وجه الماء ونحن بينها كريشة تهب الريح لا تدري في اية لحظة تصيبنا واحدة منها فتوردنا حتفنا . وكان الماء يرتفع من البحر اعمدةً شاهقة كلما وقعت قنبلة فيهِ ثم يهبط كالاعاصير الكبيرة . وكيفما التفتنا لا نرى الاَّ القنابل تتساقط والماء يرتفع وينخفض كأنهُ قدر تغلي . منظر بديع مدهش ولكن ما من احد يود ان يراهُ مرةً اخرى في الاحوال التي كنا فيها

ورأينا ونحن سائرون البوارج الثلاث ليون وتيغر وبرنسس رويال تخف العدو بقنابلها الكبيرة التي قطر كل منها ١٣½ بوصة وتغرق سفنهُ تمر بقًا وكنت ارى كأنَّ عزائم الالمان قد خارت ورضوا من الغنيمة بالفرار لان الاميرال جليكو صرفهم عن غرضهم وهو

الخروج الى الاوقيانوس الاتلنتيكي واذّب كل سفينة وصلت اليها قنابله بينما كان الاميرال بيتي يدور نحو الجنوب ويشحن في المدمر جهده · ودامت الحال على هذا المنوال الى ان خيم الظلام · وبقيت مدمراتنا امام الاسطول الاكبر تهاجم العدو بالقنبلة والتربيد حتى اذا لاذ بالفرار صارت قنابله تقصر عن الوصول الينا · وحوالي الساعة التاسعة ليلاً بعث الالمان الينا غواصة من غواصاتهم كأنهم ارادوا ان يودعونا بها فاطلقنا عليها قنبلة قضت عليها في لحظة من الزمان ولولا ذلك لقضت هي علينا فنجونا من خروب الشبك الاّ ان نجاتنا منها لم تخبنا من مخاطر تلك الساعة فانا أُمرنا حينئذٍ ان نجري وراء العدو ونشاغله الى الصباح حتى يراه الاميرال جليكو حينئذٍ ويوقع به ويتخلص من اساطيل الالمان دفعةً واحدة · ولقد كان ذلك ممكناً لهُ لولم يلذ الالمان بالفرار

اما نحن فاسرعنا كما امرنا وادركنا بوارج العدو بُعيد نصف الليل وغصنا بينها قبل ان ترانا لاننا نوقد البترول فلا دخان لنا ولا لهب · ولما رآنا الالمان بينهم دهشوا واستقطع في يدهم كما يظهر من اضطرابهم في اطلاق مدافعهم فانهم جعلوا يطلقونها جزافاً ثم وجّهوا الينا انوارهم الكشافة وكلما رأوا مدمرة من مدمراتنا اطلقوا عليها كل مدافعهم سواء سددوها او لم يسددوها · وكان الظلام حالكاً جداً فلم نتبيّن سفن العدو الاّ من لمعان البارود حين اطلاق المدافع او من رؤية مصدر الانوار الكشافة لكننا رأينا ما يكفي للاستدلال على اضطراب العدو وارتباكه في امره ورأينا بانوارهِ الكشافة سفنين من البوارج الكبيرة على جانبينا والحال جعلنا نطلق مدافعنا الصغيرة على مصدر هذه الانوار لكي تتلقفهُ واصحابها يطلقون علينا مدافعهم الكبيرة لكي يغرقونا · ودنونا حينئذٍ من بارجة كبيرة فاقتحمناها بتربيدين اصابها احدهما حتماً لانني رأيت نور انفجارهِ حينما اصابها وسمعت صوت الانفجار اما التربيد الثاني فلم اتنبه لهُ لانني شغلت عنهُ حينئذٍ · وكنا نعلم اننا سائرون الى حتفنا بظلفنا لانهُ لا ينتظر من سفن صغيرة مثل مدمراتنا ان تواقع البوارج الكبيرة وتسلم ولكن لم تكن السلامة غرضنا وانما غرضنا كان تدمير بوارج العدو ولهذا صُنعت المدمرات · وكان عملنا اسهل علينا من عمل الالمان عليهم لاننا نحن كنا مصممين على عملنا متهيئين لهُ واما هم فجاءهم العمل فجأةً على غير انتظار · على ان فعل مدافعهم بنا كان ذريعاً لان القنبلة التي تخرق درع الفولاذ السخين لا تبقي ولا تذر من مدمرة صغيرة لا واقي لها فلم يسلم من مدمراتنا الاّ مدمرة واحدة والعجب العجاب انها خاضت تلك المعركة وخرجت سالمة

اما مدمرتنا نحن الفورتشن فمزقتها القنابل اربّاً فاول قنبلة اصابتها حطّمت مقدمها

وقتلت كل الرجال الذين كانوا عليهِ والثانية ذهبت بمدفعنا المقدم ورجالهِ الاَّ رجلاً واحداً واصابت قنبلة ثالثة الازان المقدم فاطارتهُ واصابت اخرى المدفع المتوسط فرمتهُ في البحر وقتلت كل رجالهِ ولما تعطلت آلاتنا البخارية اضطررت مدمرتنا ان تقف مكانها وجعلت القنابل تخرقها من جهة الى اخرى والمياه تدخلها وتغرقها رويداً رويداً وبقي مدفعنا المؤخر سليماً وظل رجالهُ حولهُ يطلقونهُ تباعاً دراكاً وحينئذٍ وقعت قنبلة الى جانبهِ واطارت سطقة من مناطق النجاة وادخلتها في فيهِ فعطلتهُ فاسرعتُ مع الرجال الذين بقوا منا احياء الى انبوب التريد الذي وراء غرفة الآلات البخارية وكان لا يزال سليماً واطلقنا تريداً منهُ ولم تكد نطلقهُ حتى اصابت الانبوب قنبلة واطارتهُ لكن التريد مر كالسهم نحو الغرض الذي صوبناهُ اليهِ

وكان معنا عوَّامتان كبيرتان كل واحدة منهما كالحلقة الكبيرة فرميناها في البحر وكانت مدمرتنا قد اخذت تغرق والنار مضطرمة فيها فان لم تغرق حالاً فلا بدَّ من انفجار مخازن البارود التي فيها فقلَّ املنا بالنجاة ولو نزلنا الى البحر لكننا نزلنا وابعدنا بالعوامتين عن المدمرة وعن المعمة ايضاً وكانت رحاها لا تزال دائرة . ورأيت المدمرة اردنت والمدمرة تبرارسيه والنار تضطرم فيها ثم أطفئت بغتةً فاستنتجت انهما غرقتا حينئذٍ

والعوامة حلقة كبيرة مستديرة تطفو على وجهِ الماء ويجلس الرجال عليها وفيها حبال في طرف كل حبل دواسة يضع الرجل قدميهِ عليها . وكانت العوامة التي صعدت اليها مصنوعة لثمانية عشر رجلاً فصعد اليها ثلاثة وعشرون فغاصت باقدامهم تحت الماء والماء بارد كالثلج والليل حالك الظلام وكان معنا الملازم بترصن فلما رأى اننا اكثر من ان تحملنا العوامة لم يشأ ان يصعد اليها بل بقي يسبح الى جانبها الى ان اخذ منهُ الاعياء كل مأخذ فاقتضاهُ ان يمسك بحبل و يصعد الينا والاَّ هلك وكان في المدمرة كلبة قتل صاحبها وسلمت هي فتبعتنا واسكت بي بخالبها ولم تنفك عن الخرير لشدَّة ما اعتراها من برد الماء وقبلما تمكن من النجاة افلتت وغاصت في الماء ثم صعدت وجعلت تسبح ولكنها ذهبت في جهة اخرى ولم نستطع ان نسير وراءها و بعد قليل غاصت في الماء وغرقت فاسفنا عليها كلنا اسفاً شديداً

ومرت ساعتان منذ نزولنا الى العوامة ونار الحرب متأججة حولنا وفرق روَّوسنا ولم نكن نسمع بعضنا بعضاً من شدَّة قصف المدافع ولا كان فينا خاصية للكلام حينئذٍ لشدَّة ما حلَّ بنا من البرد مع اننا كنا نسير في بحر من النار . وكانت الانوار الكشافة تمر فوق روَّوسنا والقنابل الرشاشة تتساقط حولنا وبقينا نرى البوارج الكبيرة بالبرق الذي يومض من افواه

مدافعها فتظهر بغتةً كانها نبتت من قاع البحر ثم تختفي كما ظهرت . ورأينا بارجة المانية من طرز الدردنوط وهي من اولها الى آخرها شعلة نار وأحد مدافعها لا يزال يطلق لكنها صارت غرضاً لمدافع اسطولنا فانصبت عليها قنابلهُ الى ان اغرقتها امام عيوننا

وجُرح احد رجالنا من شدة ما عاناهُ ووثب الى الماء فغرق ثم جرأ البرد غيرهُ فناموا وماتوا وهم لا يفوهون بكلمة واردنا انقاذهم في البحر لكي نختف عن العوامة فقلبت بنا ولم نستطع تعويمها الاَّ بعد عناء شديد . ووجدنا حينئذٍ ان عشرة منا غرقوا ونحن نحاول تعويمها ولم يتمكن الباقون من العود اليها الاَّ بشق الانفس . ثم زاد اضطراب البحر لكي يزيد في طنبور بؤسنا نغمة فتقاذفتنا الامواج ولكن كان البرد قد خدَّر اعصابنا حتى لم نعد نشعر بشيء . ولما صرنا على آخر رمق مرَّت بنا مدمرة من مدمراتنا الساعة السادسة صباحاً وحاولت انقاذنا فلم نستطع ان نمسك بالحبال التي طرحتها الينا لشدَّة خدَر ايدينا ولم تستطع هي ان تقف قريبة منا لان غواصات الالمان كانت تطوف حولها لترميها بالتربيد حالما تقف . ثم مرَّت بنا المدمرة مورسلي بعد ان تبعت بارجة المانية من طرز البومرن Pommern ورمتها بالتربيد واغرقتها ورأينا بعض طراداتنا الخفيفة وكان يفتش عن البحارة الذين لا يزالون احياء فطارد الغواصات الالمانية وطاردها وحينئذٍ عادت المدمرة مورسلي وانزلت الينا قارباً كبيراً فنزلنا فيهِ واصعدتنا اليها وكنا سبعة عشر فقط وهم كل الذين نجوا من الخمسة والثلاثين الذين ركبوا العوامتين . واني اترك الى القارىء تصوُّر ما شعرت بهِ حينئذٍ . انتهى

هذا ولو كتب كل الذين شهدوا هذه المعركة ما رأوهُ فيها سواء كانوا من الانكليز او الالمان لكان وصفهم لها لا يقلُّ عن الوصف المتقدم على الراجح . والذين شهدوا المعارك البرية يقولون في وصفها ما يقولهُ الذين شهدوا المعارك البحرية . وقد قيل ان النظام الفاسد لا يغسل الاَّ بالدم او كما قال المتنبي

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبهِ الدمُ

ولكن ألا يمكن ان يكبح جماح النفوس بغير هذه الشكيمة أوَ لا نغسل مطامع الناس بغير الدم البريء . لقد كنا نرى ان ذلك ميسور وقريب الحصول ولكن جاءت الحرب الحاضرة فافسدت الاراء وخيبت الآمال ولا نرى متى تثوب الامم الى رشدها وتتغلَّب على الخُلق الحربي المفطورة عليهِ